

I B L A

REVUE DE L'INSTITUT

DES

BELLES LETTRES ARABES

المغرب الاسلامي في مواجهة الطاعون:
الطاعون الأعظم والطواعين التي تلت
القرنين 8-9هـ / 14-15م

أحمد السعداوي

المغرب الاسلامي في مواجهة الطاعون:

الطاعون الأعظم والطواعين التي تلت

القرنين 8-9هـ / 14-15م

أحمد السعداوي

كثيرة هي الأوبئة التي كانت تخشع المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى. وكانت هذه الأوبئة تختلف آثارا حادة في البنية الديموغرافية والاقتصادية للمجتمع الذي كان يواجهها بكثير من الاستسلام والعجز ويرى فيها مصائب تستزل بها الاقدار. وهذه الأوبئة غامضة في أذهان عامة الناس وحتى في أذهان الأطباء والفلاسفة. هذا الغموض في فهم الأوبئة وأسبابها وكيفية انتشارها نتج عنه عجز عن مواجهتها أو الاحتواء منها.

وكان الطاعون أخطر وباء أثر في تاريخ المغرب الوسيط الاقتصادي والاجتماعي وذلك خاصة في القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م أو بصفة أدق بداية من الطاعون الأعظم الذي اكتسح المنطقة في منتصف القرن 8هـ/14م.

وكان الطاعون يفاقم المجتمع المغربي من حين لآخر، ويولد انتشاره فزعا ورعبا خاصا، حتى أن المصادر المعاصرة كثيرا ما تهمل الحديث عن الأوبئة الأخرى (الحمى بأنواعها، الجداز، الجدري، الزهري...) ولا تتحدث إلا عن الطاعون. ويرجع ذلك إلى كون هذا الوباء شديد الفتك قتال يعم بسهولة مناطق ممتدة ويحدث في الجهات التي ينتشر فيها نزيفا ديموغرافيا واقتصاديا تظل تعاني منه زمنا طويلا. لكل ذلك يرسخ الطاعون في الذاكرة الجماعية وهذا الرسوخ تجد صده في الكتابات المعاصرة.

I- الطاعون الأعظم وسلسلة الطواعين التي تلت:

أ (الطاعون الأعظم (منتصف القرن 8هـ/14م)

إن المؤلفات التاريخية التي تحدثت عن القرن 8هـ/14م عادة ما تذكر الطاعون الأعظم وربما أسمته الطاعون الأكبر أو الطاعون الجارف أو الطاعون العام، ولكن المصادر التاريخية المتنوعة لا تتوفر فيها معطيات كثيرة عن هذا الوباء، بل هي تذكره في سياق حديثها عن سائر الأحداث السياسية والاجتماعية. وإلى جانب المصادر التاريخية المتنوعة نجد جملة من المؤلفات

كتبت حول الطاعون. هذه المؤلفات التي تؤكد الأهمية التي أصبح يحتلها الطاعون في حياة الناس تقدّم معلومات ضافية ودقيقة عن هذا الوباء.

فقد كتب الأندلسي أحمد بن علي بن خاتمة (1) عام 1349م رسالة حول الطاعون الأعظم أسماها: "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد". كذلك كتب الأندلسي محمد بن عبد الله بن الخطيب (2) رسالة أخرى حول هذا الوباء أسماها: "مقتعة السائل عن المرض المائل" وامتناز هذان المؤلفان بالدقة و"العلمية" في وصف المرض وتقديم العلاج والاحتياطات الضرورية لتجنب العدوى. ومن ناحية ثانية كتب المصري أحمد بن حجر العسقلاني (3) "بذل الماعون في فوائد الطاعون" وكتب المصري شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة (4) كتاب "دفع النعمة في الصلاة على نبي الرحمة" وهذان المؤلفان الشريهان ركّزا على الجانب الفقهي إذ سجّلا ما ورد من نصوص دينية كلاسيكية عن الطاعون، أمّا الجانب الطبي والتاريخي فهو ثانوي فيهما.

اعتمادا على جملة مصادرنا وخاصة تلك التي سبق ذكرها سنحاول البحث عن مصدر الطاعون الأعظم وتتبع طرق انتشاره كما سنحاول البحث عن الوسائل التي اتبعت للتصدّي له والنتائج التي خلّفها في البنية الديموغرافية والاقتصادية للمجتمع.

إنّ مصدر الطاعون الأعظم نجده في سباسب (Steppes) آسيا الوسطى التي كانت مخزنا للأوبئة ومنها انتشر نحو الهند والصين، من جهة، ونحو الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط، من جهة ثانية. وكان الأندلسي ابن خاتمة أول من أشار إلى ذلك، فقد ذكر أنّ أحد التجّار المسيحيين القادمين من سمرقند أخبره أنّ الطاعون قد ظهر بتلك المناطق ومنها انتقل إلى

1. مخطوطة الأوسكوريال (إسبانيا) رقم 1785. هذا النصّ ترجم جزئيا إلى الألمانية
انظر Taha Dinānah: "Die schrift Von Abi Ja'far ibn Ahmed ibn 'Ali ibn Muhammed
ibn 'Ali ibn Khātimah aus Almeriah über die pest," in K. Sudhoff et H.E
Sigerist, *Archiv für Geschichte der Medizin*, vol 19 (Leipzig, 1927), pp.27-81.
2. مخطوطة الأوسكوريال رقم 1786 نشر ودرس منذ القرن الفارط
Müller M.J., "Tbnulxhatib's Bericht über die Pest." in *Sitzungsberichte der Königl.
Bayerischen Akademie der Wissenschaften zu München* (Munich, 1863), Part 2, p. 1-34
في هذه الدراسة سوف نستعمل النصّ الذي حققه ونشره ميلار (Müller M.J.)
3. مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 569
4. مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 18574

الصين وفارس والعراق والأراضي التركية (5). ويؤكد هذا الخبر ابن الخطيب إذ يقول: "إن قيل ما عندكم في أصل هذا الوباء ومذ كم ظهر في الأرض، قلنا هذا الواقع ابتدأ بأرض الخطا والصين في حدود عام أربعة وثلاثين وسبع مائة، حدثت بذلك غير واحد من أولى الرحلة البعيدة والجلولان كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله بن بطوطة وغيره..." (6).

انتشر الطاعون ببلاد المغرب بواسطة السفن القادمة من الشام أو مصر أو إيطاليا وذلك عام 748هـ / 1347م، أو بداية السنة الموالية (7)، وقد اكتسح الوباء مدينة تونس خلال الحملة المرينية. فلما عاد السلطان المريني أبو الحسن إلى تونس بعد هزيمته أمام القبائل العربية قرب القيروان في المعركة التي دارت في بداية سنة 749هـ / أبريل 1348م، وجد الطاعون قد عمها وأهلك الكثير من سكّانها وأدخل الفوضى والخلل على الحياة الإدارية والاقتصادية بالمدينة وارتفعت الوفيات حتى أنه في شهر ربيع الأول عام 749هـ / جوان 1349م كان يموت يوميا ألف شخص حسب بعض المصادر (8). كما أن ابن خاتمة ذكر أنه في بعض الأيام بلغ عدد الموتى بمدينة تونس 1202 ومدينة تلمسان 700 وبلنسية 1500 وبمورقة 1252 (24 ماي 1348) والمرة 70 (9).

ويبدو أن الجيش المريني لما غادر إفريقية متوجّها إلى فاس ساهم في نشر الطاعون على طول الطريق التي سلكها، ولكن هذا لا يعني أن المرض انتقل إلى تلك الجهات أي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مع الجيش المريني إذ كان الوباء وصل من قبل هذه المناطق كما ذكرنا عن طريق الموانئ البحرية. وتواصل الوباء في إفريقية والمغرب سنة 750هـ / 1349م فيذكر ابن بطوطة أن أمه ماتت به خلال هذه السنة بمدينة تازا بالمغرب الأقصى (10)، ونجده

5. ابن خاتمة، التحصيل، ورقة 68 ب.

6. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 8.

7. ابن خلدون، كتاب العمر، ج 7، ص 812، 834، 837، 849؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، القاهرة 1966، ج 4، ص 33-34.

Dols W. M., *The black death*, p. 63-65.

8. ابن الشماخ، الأذلة، ص 97-98؛ ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العمر، ج 7، ص 849. ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس 1967، ص 147. ويذكر البهاهي، 1948، ص 155-157، متحدّثا عن الطاعون الأعظم ما يلي: "وقد شاهدنا منه غرائب يقصر اللسان عن جملة أجزائها. ومنها انتهى عدد الأموات فب تلك الملحمة الوبائية بمالقة إلى ما يزيد في اليوم على الألف، بقي بعد ذلك أشهراً حتى حلت الضرر، وعمرت القبور..."

9. ترجمة 41، Dinānah Taha, 1927, p. 657.

10. ابن بطوطة، الرحلة، بيروت 1964، ص 657.

كذلك في الأندلس سنة 751 هـ / مارس 1350م حيث أهلك عددا من جيش الفنسو ملك قشتالة الذي كان يحاصر المسلمين في جبل طارق(11).

ورغم تجزؤ الأرض المغربية لكثرة السلاسل الجبلية وامتداد الصحاري فإن الطاعون الأعظم كان من الأوبئة النادرة التي امتازت بالشمول يقول ابن الخطيب: "ثم يتصل الفساد حسبا قدامنا، وشمل على هذه الوتيرة أكثر المعمور فحرز ما هلك من نوع الانسان به في هذا الوقت الحدود بسبعة الأعشار، ولم يتقدم فيما اتصل بأولي الاطلاع من تواريخ الأمم وباء بلغ مبلغه من أخذه ما بين لابي المشرق والمغرب واتصاله بالجزائر المنقطعة في البحر واستصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة، يتعلق بالناس تعلق النار بالحلفاء والهشيم بأدنى ملابسه من إمام بحريض أو ربما بمباشرة ثوبه وآنيته" (12). ولقد تميز الطاعون الأعظم كما هو ثابت في مصادرها بالقوة والشمول مما جعل نتائجه الديموغرافية والاقتصادية هامة وبذلك لا يمكن الاستغناء عن درس هذا الوباء التاريخي لفهم التحول الذي شهده الاقتصاد والمجتمع المغربي في منتصف القرن 8هـ / 14م، حتى ان ابن خلدون اعتبر التدمير الذي ألحقه بالمجتمع المغربي لا يقل عن التخريب والتدمير الذي خلفه الغزو الهلالي.

وكان عدد الهلكى مرتفعا بإجماع المصادر، شمل ثلث أو نصف سكان المناطق المصابة وربما تجاوز ذلك وذلك حسب مصادر موثوق بها مثل ابن خلدون الذي فقد أمه وأباه وعددا من أساتذته في الطاعون أو ابن الخطيب الذي ذكر ان الوباء "شمل على هذه الوتيرة أكثر المعمور فحرز ما هلك من نوع الانسان بسبعة الأعشار ولم يتقدم فيما اتصل بأولي الاطلاع من تواريخ الأمم خبر وباء بلغ مبلغه من أخذه ما بين لابي المشرق والمغرب واتصاله بالجزائر المنقطعة في البحر واستصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة يتعلق بالناس تعلق النار بالهشيم بأدنى ملابسه، من إمام بحريض أو بمباشرة ثوبه وآنيته وفيما ظهر فيه نفث الدم أشد وعند قبض النفوس أعظم" (13). ومن الطبيعي أن ارتفاع عدد الهلكى يعطل وربما يشل النشاطات الاقتصادية، فهو يمنع الزرع والحصاد ويؤدي الى اهمال المواشي والدواب يشير

11. ابن خلدون، كتاب العبر، ج7، ص679. Zigler H, 1969, p.114.

12. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 9.

13. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 9.

المقريري إلى ذلك بوضوح يقول في السلوك: "وعم الموتان أرض افريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموت وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها" (14).

وكثرة الموتى تعني قلة اليد العاملة في المدينة وفي الريف، وهذا يؤثر سلبيا على إنتاج المواد الغذائية فتصبح نادرة مما يولد المجاعة وفعلا فقد كان الطاعون الأعظم بافريقية مصحوبا بالمجاعة وبارتفاع السعر حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير كما ذكر ابن الشماخ (15).

ولم تكن هذه الضربة القاسية التي أصابت الاقتصاد والمجتمع المغربي نتيجة الوباء ذات مفعول ظرفي، بل أن الطاعون الأعظم كان من العلامات الدالة على التحولات العميقة التي كانت تدفع بالمجتمع المغربي إلى الركود والضعف والتراجع. وتفطن ابن خلدون الذي عاصر الطاعون الأعظم إلى العلاقة بين مثل هذه الكارثة والتحولات الاجتماعية بل الحضارية التي شهدتها بلاد المغرب في عهده يقول في المقدمة: "وأما هذا العهد وهو أواخر المائة الثامنة (أواخر القرن الرابع عشر ميلادي) فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة". وهذا التحول ابتداء حسب ابن خلدون في القرن 5هـ/11م مع غزو القبائل الهلالية للمغرب العربي وتعمق هذا التحول في منتصف القرن 8هـ/14م وذلك نتيجة "إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تخيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاه، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدّها وأوهن من سلطانها، وتداغت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدلت المساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبه ومقدار عمرانه وكأنا نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالاجابة. والله وارث الأرض ومن عليها واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنا تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم محدث" (16).

وهذا النص يكفي وحده للدلالة على الأهمية التي يكتسبها الطاعون الأعظم بالنسبة لكل من يهتم بدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب الإسلامي خلال الفترة

14. المقريري أحمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة 1958، قسم II ج 63 ص 777.

15. ابن الشماخ، الأدلة، ص 98..

16. ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر، ج 1 ص. 52-53.

الأخيرة للعصر الوسيط. وتزداد أهمية هذا الوباء عندما نعلم أنه كان منطلقا لسلسلة من الطواعين استمرت حتى القرن التاسع عشر.

ب) سلسلة الطواعين التي تلت الطاعون الأعظم:

اعتمادا على مصادرنا أحصينا أكثر من عشرة طواعين وقعت ببلاد المغرب خلال الفترة التي ابتدأت بالطاعون الأعظم واستمرت حتى منتهى القرن 9هـ/15م، أي على طول قرن ونصف القرن وهو معدل قريب من المعدل الذي قدّمه الفرنسي بيرابن (Biraben) في دراسة عامة للطاعون بفرنسا والبلدان الأوروبية والمتوسطية. (17)

على طول هذه الفترة نسجل عودة الطاعون كل عشرة أو عشرين سنة: (748-751/1347-1350م)، (766/1364م)، (769/1367م)، (796/1393م)، (805/1402م)، (815-818/1412-1415م)، (844-847/1440-1443م)، (856-857هـ/1453-1452م)، (871-873/1466-1468م)، (898-899/1492-1493م)، (905-906هـ/1498-1499م).

الطواعين التي جاءت بعد الطاعون الأعظم وكانت عبارة عن إستفاقة للوباء الأصلي، وهي بذلك أقل فتكا منه، بل إن بعضها كان محليا ذا نتائج محدودة، على أن بعضها الآخر كان كثير الفتك فطاعون 844-847هـ/1440-1443م بالإضافة إلى عامة الناس "هلك فيه جمع من العلماء والإعيان" (18). وطاعون 871-873هـ/1466-1468م الذي ظهر بالأندلس (19) ثم انتشر بافريقية كان من أعظم أوبئة القرن التاسع الهجري وقد استمر هذا الطاعون بتونس طيلة السنة من شهر ذي القعدة عام 872هـ/جوان 1468 إلى نفس الشهر من السنة الموالية "ولم يزل يتزايد، كما ذكر الزركشي، حتى بلغ عدد الهلكى به الفا كل يوم" (20). أما ابن أبي دينار فيذكر أن الوباء عظم بتونس "وقيل أنه بلغ عدد الموتى به إلى أربعة عشر ألفا في كل يوم، وحصر في الزمام أربعمئة ألف غدا من لم يدخل في الزمن نحو

17. Biraben, Jean-Noël, *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, Paris 1975-1976.

18. الزركشي، 1966، ص 141.

19. Lévi-Provençal E. 1931, t1, p.175.

20. الزركشي، 1966، ص 158.

المائة ألف (21). أما أدورن Adorne الرحالة الهولندي الذي زار تونس سنتين بعد هذا الوباء فقد قدر عدد من مات بالعاصمة خلال الطاعون بمائتين وستين ألفا (22).

جدول أهم الأوبئة والطواعين بالمغرب الإسلامي خلال القرنين 8-9هـ/14-15م

التاريخ	المكان	النوعية	الشدة والواقع	المصادر
الهجري	الميلادي			
751-748	1350-1347	إفريقية والمغرب والأندلس	الطاعون العالم	ابن الخطيب، 1863، ص 9 ابن الخطيب، 1928، ج 2، ص 53 ابن خاتمة المخطوط، ابن حجر المخطوط ابن خلدون 1967-1968، ج 1، ص 53، ج 7، ص 517 812، 837، 849. المغريزي 1948، ج 2، ق III، ص 777 النباهي 1948، ص 157-154 و 161-163 ابن قنفذ، 1983، ص 354-356
766	1364	تونس	طاعون	ابن الشماخ، 1984، ص 105
769	1367	غرناطة	وباء	ابن الخطيب، 1928، ج 2، ص 53
796	1393	إفريقية	طاعون	الأبي، 1902، ج 6، ص 33-34
805	1402	تونس وجهاتها	وباء	ابن قنفذ، 1968، ص 199
815	1412	فاس	طاعون	L'Africain J.L 1956 p 171-172, note 70
818	1415	مكناس	طاعون	ابن غازي، 1964، ص 59 ابن مريم، 1908، ص 264
847-844	1443-1440	إفريقية والمغرب والأندلس	طاعون	الزركشي، 1966، ص 141 ابن مريم، 1908، ص 43 الطنبوكتي، 1911، ص 80
857-856	1453-1452	المغرب وإفريقية	وباء	الزركشي، 1966، ص 147 الطنبوكتي، 1911، ص 80
873-871	1468-1466	الأندلس والمغرب وإفريقية	طاعون	Lévi-Provençal, 1931, T 1, p 175 Brunschwig R, 1936 p 200 الزركشي 1966، ص 158 ابن مريم، 1908، ص 224 السراج، 1984، ج 2، ص 200 ابن أبي دينار، 1967، ص 158
899-898	1493-1492	إفريقية وفاس	وباء	ابن أبي دينار، 1967، ص 159 السراج، 1984، ج 2، ص 201 Chronique juive cité par Semmach V.D, 1934, p 92

21. ابن أبي دينار، 1967، ص 158، الرقم الذي يقدمه المؤلف مبالغ فيه بدون شك.

22. Brunschwig R., 1936, p.200.

وقد انتهى القرن التاسع الهجري بوباء عظيم وقع عام 898-899هـ/1492-1493م مات فيه خلق كثير ومات به السلطان الحفصي أبو زكريا في 9 من شعبان (23). بماذا يمكن تفسير هذا التواتر وهذا الظهور المتكرر للطاعون؟

تفطن مفكروا القرون الوسطى إلى هذه العودة الدورية للوباء وكان الحسن الوزان أكثرهم وضوحا في بسط هذه الظاهرة يقول: "إنّ الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشرة سنوات أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة، وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس". (24)

هذه العودة الدورية ناتجة عن عدة عوامل متداخلة لا يكفي الواحد منها لتفسير هذه الظاهرة، نكتفي هنا بطرح ثلاثة من هذه العوامل تبدو لنا الأساسية:

1) الحصانة: ذلك أنّ من يصاب بالطاعون ثم يعافى من مرضه يصاب بحصانة ضدّ هذا الوباء ويستمر فعل الحصانة هذا على مدى الجيل الذي أصيب بالطاعون. (2) **الجماعات:** تذكر مصادرها عدّة أوبئة مصحوبة بالجماعة فماهي نوعية العلاقة بين الظاهرتين؟

يبدو أن تتالي عدّة سنوات من القحط والشدة يهيء الأرضية للطاعون وغيره من الأمراض، ذلك أنّ نقص التغذية يجعل السكّان أكثر قابلية للإصابة بالعدوى، وأقل صمودا في مواجهة المرض. ولكن الوباء هو الآخر قد يسبب المجاعة والشدة والموت المرتفع في صفوف القوى العاملة وكذلك تقلص التبادل التجاري خاصّة استيراد المواد الغذائية من حبوب وتمور وغيرها يولّد المجاعة. لذلك لانستغرب أن تحدث مصادرها عن: "قحط شديد ووباء كثير..." "وباء وغلاء عظيم..." "الوباء والجوع..." "المجاعة الشديدة والوباء العظيم..."

ولكن هذا الالتقاء بين الظاهرتين لا يعني علاقة الزامية بينهما، إذ أحصينا كثيرا من الجماعات لم تكن مصحوبة بالوباء، كذلك تذكر مصادرها بعض الأوبئة حدثت في سنوات رخاء. فالجماعة وإن لم تكن من العوامل المحددة لظهور الوباء فهي ولاشك من العوامل التي تسهل انتشاره وتهيء له الأرضية التي تجعله شديد الوقع قتالا.

(3) مخازن الفيروس: (Réservoirs de virus) ولعلّ أهم عامل يمكن من تفسير العودة الدورية للطاعون يكمن في مخازن الفيروس وهذا التفسير يدعمه علم الأمراض الحديث، إذ أثبتت الدراسات الطبية أنّ المغرب الإسلامي يحتوي على أكثر من مخزن للفيروس. كذلك يرى بيرابن (Biraben) أنّ عودة الوباء كل 10 أو 12 سنة مرتبط بسفع الشمس (Les tâches solaires) التي تؤثر على كثرة القواضم البرية. تتولى براغيث هذه القواضم نقل الفيروس منها إلى الانسان (25). إذا فالظهور الدوري للطاعون بالمغرب العربي ما هو إلّا انعكاس لظهور هذا الوباء بين قواضم المنطقة أو قواضم المناطق المجاورة.

II- الطاعون في إطاره الجغرافي:

إنّ جغرافية شمال إفريقيا الطبيعية والسكانية تمكّنتنا من فهم الكثير فيما يخصّ انتشار الطاعون وغيره من الأوبئة في مختلف مناطق بلاد إفريقيا والمغرب.

فهناك عوامل تحدّ من انتشار الوباء وتجعله محلياً في كثير من الأحيان، منها كثرة السلاسل الجبلية التي تعزل المناطق عن بعضها وتحدّ بالتالي من تبادل العدوى بينها. فمكّان جبال الأطلس أو جبال الريف أو جبال القبائل يكونون في كثير من الأحيان في حمى من الأوبئة المنتشرة في السهول المحيطة.

كذلك امتداد الصحاري على مساحات شاسعة من بلاد إفريقيا والمغرب تحدّ من انتشار الوباء، والقبائل التي تسكن الواحات أو تنتقل عبر الصحراء والسباسب، هي الأخرى تكون في كثير من الأحيان في حمى من الأوبئة التي تكتسح المناطق الشمالية الساحلية، خاصّة أنّ المناطق الجنوبية الصحراوية تميّزت دائماً بضعف الكثافة السكانية مما تحدّ من كثرة الاحتكاك بين السكّان وبالتالي تحدّ من انتشار الأمراض المعدية.

وقد لاحظ الحسن الوزان هذا الاختلاف من حيث انتشار الوباء بين المناطق الشمالية الساحلية والمناطق الجنوبية الصحراوية بالمغرب العربي، فذكر أنّ الطواغين تظهر بصورة دورية في المناطق الشمالية ويسمّيها أرض البربر كل عشرة أو خمسة عشرة أو خمس وعشرين سنة، في حين أنّها لم تظهر بالمناطق الجنوبية الصحراوية ويسمّيها بنوميديا منذ أكثر من قرن أي

طيلة القرن 9هـ/15م(26). وأثناء حديثه عن الطاعون الأعظم ذكر ابن الخطيب أن "الأخبار تواترت بسلامة أماكن لا تطوها الطرق ومنقطعة عن الناس"(27).

هناك عوامل أخرى جغرافية تساهم في نشر الوباء وجليه إلى المغرب من مناطق أخرى. من هذه العوامل البحر الذي يخيظ بالمنطقة من ثلاث جهات، ذلك أن الموانئ البحرية في القرون الوسطى والعصر الحديث كانت أسرع طريق لنقل العدوى، إذ أن السفن الواردة على المغرب سواء ذلك من أوروبا: من الموانئ الإيطالية أو الفرنسية أو من الشرق وخاصة من الاسكندرية أو من موانئ الشام تحمل معها الفيروس أما بواسطة الفئران والقواضم التي تتحول من السفن الراسية بالموانئ إلى الرصيف، كذلك ينتقل الفيروس عن طريق من هو مصاب بالوباء من البحارة.

وقد تفتن المعاصرون إلى خطورة العدوى التي تحملها السفن فقد ذكر ابن الخطيب أن وقوع المرض "في مدن السواحل المستصحبة حال السلامة إلى أن يحمل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل موءف فيكون تاريخ ظهور المرض بها مقارنا لخلوله"(28).

وكانت بذلك المدن المينائية عرضة أكثر من غيرها لسائر الأوبئة وكانت حلّ الطواعين التي اكتسحت المغرب طواعين بحرية تظهر في الموانئ ومنها تنشر عبر المناطق الأخرى.

لذلك كثيرا ما تشير المصادر إلى وجود الوباء بالموانئ الكبرى مثل ميناء تونس، بنزرت، صفاقس، المهدية، سوسة، الجزائر، وهران، سبتة، طنجة أو المدن القريبة من الموانئ مثل قسنطينة، تلمسان، فاس ومراكش.

على عكس ذلك يقل الطاعون بالمدن الداخلية وخاصة المدن الصحراوية البعيدة عن السواحل.

إلى جانب الموانئ لعبت شبكة الطرقات البرية دورا كبيرا في نقل الوباء من منطقة إلى أخرى، فقوافل الحجاج والتجار القادمون من الشرق عبر مصر وبرقة كثيرا ما تنشر الوباء في

26. L'Africain J.-L., 1956, p. 102.

27. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.

28. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.

طريق مرورها. كذلك القوافل المتنقلة بين شرقي المغرب وغربه بالإضافة إلى الجيوش تلعب نفس الدور، وكنا ذكرنا كيف انتقل الطاعون الأعظم من تونس إلى المغرب الأوسط والأقصى صحة جنود السلطان المريني أبي الحسن.

كذلك التنقلات لزيارة الأضرحة والأولياء تلعب دورا هاما في نشر الوباء خاصة في فترات الشدة وكثرة الموت والمصابين يزداد إقبال الناس على مثل هذه الزيارات.

أما الرحال فكان يلعب في نفس الوقت دورا سلبيا وإيجابيا في نشر الطاعون. فهو يمكن أن يعطل انتشار العدوى إذ بإمكان القبائل الرحل أن تفر أمام المرض وتتجنب الوباء وتسكن المناطق المعزولة الصحراوية وتبتعد عن المناطق الموبوءة، وفعلًا فقد سلمت بعض القبائل الرحل من المرض خلال الطاعون الأعظم فقد ذكر ابن الخطيب أنه: "صح النقل بسلامة أهل العمود والرحالين من العرب بالبرقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه" (29) كما يمكن للرحال أن يسهل انتشار الوباء وذلك بالاتصال مع الرحل من منطقة موبوءة إلى منطقة سليمة.

III- الطاعون: الوسط الثقافي والاجتماعي:

إن مسلمي نهاية القرون الوسطى، لما واجهوا الطاعون الأعظم وسلسلة الطواعين التي تبعته عادوا إلى تراث العصور الإسلامية الأولى واتبعوا التقاليد الدينية والأبحاث الطبية التي ترجع إلى تلك العهود، لذلك أهم ما تقدمه مصادرنا ما هو إلا انعكاس لمجموع النصوص الكلاسيكية حول الموضوع (أقوال الرسول والصحابة وأفعالهم) وكذلك النصوص الطبية الكلاسيكية (ابن سينا، ابن رشد وابن الجزار).

وتقوم المصادر المعاصرة لطواعين القرن 8-9 هـ / 14-15م بجمع هذه النصوص وتقديمها مع ذكر بعض الإضافات التأخرية التي كثرت ما أدت إلى اختلاف ومجادلة حادة بين الفقهاء حول شرعيتها. نذكر من هذه الإضافات الصلاة الجماعية عند حدوث الطاعون، أو الصلاة على النبي لدفع الوباء أو الصوم.

المصادر الأندلسية المعاصرة كانت أكثر عقلانية من المصادر الأخرى، فقد تخلصت نسبيا من قبضة النصوص الدينية الكلاسيكية واعتمد مؤلفوها في أبحاثهم على طريقة الملاحظة

29. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.

والاستنتاج الذي يطرأ من الملاحظة. ستقوم عرض الموقفين وذلك خلال حديثنا عن وصف المعاصرين للطاعون وحديثهم عن أسبابه وظرف علاجه.

1) في تشخيص الطاعون: يعود مذكر أن الطاعون في نصوص القرون الوسطى يعني عدّة أوبئة فالطاعون هو الموت العام كالوباء، والطاعون هو الوباء والمرض العام والطاعون هو الموت من الوباء والرجس والعذاب والاتم والذنب.

هذا الخلط بين الطاعون والوباء واضح خاصة في الكتابات السابقة للطاعون العام. ولكن ابتداء من الطاعون الأعظم بدأ الكتاب بميزون اللَّفْظَيْن. فابن أبي حجلة يتساءل: هل هما مترادفان أم متغايران؟ وهو لا يحسم الموقف بل يورد أقوالا تُلْخِط بين المصطلحين وأقوالا أخرى تفرق بينهما. "وقالوا كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون" (30). هذا الخلط يكون عند سرد أقوال السلف ولكن مع التقدم في التعريف بالطاعون يبدأ التفريق بين اللَّفْظَيْن بل أن أبي حجر العسقلاني يكتب فصلا كاملا يسميه: "البيان الدال على أن الطاعون غير مرادف للوباء وإن إطلاقه عليه إنما هو بطريق المجاز لكونه أخصّ منه" وذلك يؤكد السبب السحري الغيبي للطاعون الذي هو طعن الجن في حين أن الوباء سببه تعفن الهواء (31).

وقد زامن ابن أبي حجلة وابن حجر العسقلاني عدّة طواعين لذلك عندما يتخلصان من سرد النصوص القديمة بقدمان وصفا دقيقا للطاعون وخاصة الطاعون الغددي الذي كان أكثر الطواعين انتشارا.

وفي التعريف يلجأ إلى التشبيه لتقريب الصورة، فهو "عدّة كعدّة البعير تخرج في المرافق والاياط"، وهو "قريب من الخدام". ثم يصبح الوصف أكثر دقة، فالطاعون "حبة تخرج في كل طي من الجسد" وهو "ورم مؤلم ويحمر حمرة بنفسجية". وتنتج عن الإصابة بالطاعون مجموعة من العلامات العامة، حتى، اعباء، عرق مصحوب بقلق وطفة ورعدة، القيح، الغثيان، الخفقان الشديد، الدمل هي الأخرى من العلامات المميزة للطاعون عن سائر الأمراض ونذكرها أغلب مصادرتنا، وربما أسستها الغدد أو الخراج وهي "تظهر في كل طي من الجسد،

30. ابن أبي حجلة، دفع النملة، ورقة 53 ب.

31. ابن حجر العسقلاني، بدل للطاعون، ورقة 8 ب.

وتحت الابط وخلف الاذن وربما عمت اليدين⁽³²⁾. وذكر ابن خثاعة أنَّ هذه الدمل أو الغدد تنمو بنمو الحمى والرعدة.

ومن علامات الطاعون التي ذكرها ابن خثاعة وابن الخطيب النزيف ونفث الدم والبييلة الدموية، وذكر ابن الخطيب أنَّ هذه العلامات دالة على نهاية المريض الحتمية.

كذلك أشار ابن خثاعة الى علامات أخرى مميزة للطاعون منها ارتفاع قوّة النبض والحمى المصحوبة بالتشنج والاحساس بالبرودة في الأطراف واسوداد اللسان وانتفاخ اللثة.

هذه مجموع الأوصاف التي تقدمها مصادرنا وهي في أغلبها أوصاف للطاعون الغددي، على أنَّ بعض هذه الأوصاف ينطبق على أنواع أخرى من ذلك نفث الدّم، والحمى الشديدة وهما من خصائص الطاعون الرئوي.

أمّا الاعماء والاضطرابات العصبية فهي من مواصفات الطاعون التسممي وقد أشار ابن خثاعة إليها. ومصادرنا تعطي عادة أوصاف نوعي الطاعون الشديدي الانتشار وتعني بهما، الطاعون الغددي والطاعون الرئوي.

الآن أنَّ ابن حنبل يذكر أربعة أنواع من الطواعين: (33)

1- طاعون ذا غدد تخرج في المغاين.

2- طاعون ذا غدد تخرج في أي عضو من البدن.

3- طاعون يظفي الروح، الذئبة (الرئوي)

4- طاعون يصيب عضو فيتأكل؛ مفعوله بمثال مفعول الجذام (التسممي).

وكان الطاعون الدملي وتسمية المصار أحيانا الغددي أو الخراجي أكثر الطواعين انتشارا، على أنَّ الطاعون الرئوي كان يخافه الناس وكان حدوثه يثير الرعب والفرع الشديد، لأنَّ الإصابة به تعني الموت المحقق كما أشار الى ذلك ابن أبي حنبل بقوله: "أنه يتبع أهل الدار فمن يصب أحد منهم دما تحقّقوا كلهم عدما". (34)

32. ابن حجر العسقلاني، بادل الماصرون، ورقة 8 أ.

33. ابن حجر العسقلاني، بادل الماصرون، ورقة 18-8ب.

34. ابن أبي حنبل، دفع النقمة، ورقة 107ب.

وتحت الابط وخلف الاذن وربما عمت اليدين⁽³²⁾. وذكر ابن خثاعة أنَّ هذه الدمل أو الغدد تنمو بنمو الحمى والرعدة.

ومن علامات الطاعون التي ذكرها ابن خثاعة وابن الخطيب النزيف ونفث الدم والبييلة الدموية، وذكر ابن الخطيب أنَّ هذه العلامات دالة على نهاية المريض الحتمية.

كذلك أشار ابن خثاعة الى علامات أخرى مميزة للطاعون منها ارتفاع قوّة النبض والحمى المصحوبة بالتشنج والاحساس بالبرودة في الأطراف واسوداد اللسان وانتفاخ اللثة.

هذه مجموع الأوصاف التي تقدمها مصادرنا وهي في أغلبها أوصاف للطاعون الغددي، على أنَّ بعض هذه الأوصاف ينطبق على أنواع أخرى من ذلك نفث الدّم، والحمى الشديدة وهما من خصائص الطاعون الرئوي.

أمّا الاعماء والاضطرابات العصبية فهي من مواصفات الطاعون التسممي وقد أشار ابن خثاعة إليها. ومصادرنا تعطي عادة أوصاف نوعي الطاعون الشديدي الانتشار وتعني بهما، الطاعون الغددي والطاعون الرئوي.

الآن أنَّ ابن حنبل يذكر أربعة أنواع من الطواعين: (33)

1- طاعون ذا غدد تخرج في المغاير.

2- طاعون ذا غدد تخرج في أي عضو من البدن.

3- طاعون يظفي الروح، الذبحة (الرئوي)

4- طاعون يصيب عضو فيتأكل؛ مفعوله بمثال مفعول الجذام (التسممي).

وكان الطاعون الدملي وتسمية المصار أحيانا الغددي أو الخراجي أكثر الطواعين انتشارا، على أنَّ الطاعون الرئوي كان يخافه الناس وكان حدوثه يثير الرعب والفرع الشديد، لأنّ الإصابة به تعني الموت المحقق كما أشار الى ذلك ابن أبي حنبل بقوله: "أنه يتبع أهل الدار فمن يصبق أحد منهم دما تحقّقوا كلهم عدما". (34)

32. ابن حجر العسقلاني، بادل الماصرون، ورقة 8 أ.

33. ابن حجر العسقلاني، بادل الماصرون، ورقة 18-8ب.

34. ابن أبي حنبل، دفع النقمة، ورقة 107ب.

أما ابن حجر فيذكر: "وبعضهم يصدق دما فيجر ميتاً".

وإذا كان ثلثا من يضايون بالطاعون الغددي يهلكون فإن من يضاي بالطاعون
الزئوي لا ينحو منه إلا في حالات نادرة جداً.

2) في أسباب الطاعون: أغلب مصادرنا تعطي الطاعون نوعين من الأسباب:

* أسباب سماوية شرعية.

* أسباب أرضية طبيعية.

أورد ابن حجر أن النبأ ينشأ من فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية وأرضية.
عنى أن الأسباب الشرعية السماوية نستطيع تقسيمها إلى ثلاثة أنواع من الأسباب:

أ) أسباب فلكية: منها كثرة الشهب والرحوم في آخر الصيف، وكثرة الجنوب
والصبا في الكانونين وإذا كثرت علامات المطر في الشتاء ولم تحضر.

ب) أسباب صحيرية: وتتمثل في ارجاع الطاعون إلى سهام ترميها الجن، وابن حجر
يعتقلاني بورد سلسلة من أحاديث الرسول في هذا المعنى، وهذا التفسير السحري الغيبي
يرجع إلى الأساطير العربية التي سبقت الإسلام وقد تبناها فيما بعد الكتاب المسلمون بل أن
حال الفقهاء يرون أن طعن الجن هو السبب الحقيقي للطاعون وهو الذي جعل الطاعون يختلف
عن سائر الأوبئة.

ج) أسباب أخلاقية: منذ العصور القديمة رأى الإنسان في الطاعون وغيره من
الكوارث الطبيعية عقاب وانتقام القوى القبيحة من الإنسان. وفي العقيدة الإسلامية نجد
استمرار لهذا المفهوم مع شيء من التغيير. فأحاديث الرسول تتحدث عن الطاعون على أساس
أنه رخص وعذاب على الكافرين، وقد أرسل لمعاوية أمم سابقة. ولكن هذا الرخص والعذاب
أعطت المقاتلين المسلمين أنفسهم. وحل هذا التناقض جاءت النصوص الدينية لتؤكد أنه رحمة
وشهادة للمسلمين. لذلك يبدو الطاعون في النصوص الإسلامية الكلاسيكية ذا وجهان: رخص
وعذاب على الكافرين، رحمة وشهادة للمؤمنين.

إذا فالسبب الحقيقي للطاعون بقي مجهولا تماما لدى الأطباء والمفكرين العرب مثلما هو الأمر بالنسبة لسائر مفكري القرون الوسطى.

وحتى الوسطاء (Les agents vecteurs) التي تنقل جرثومة الطاعون أو عصية يارسين (La bacille de Yersin) لم يقع التنظير إليها، ونعني بالوسطاء الفئران، الجرذان البرية، البق، البعوض، القمل وغيرها من الحشرات المروجة للطاعون بين الانسان.

وبالرغم من أننا لا نجد في المصادر العربية التي ترجع الى القرون الوسطى حديثا عن الأسباب الحقيقية للطاعون فأننا في الكثير من الأحيان نجد ذكرا للعدوى، وقد ترددت المواقف بين التفي والاثبات، أما الموقف الأول الذي يتفي العدوى فيعتمد في ذلك على النصوص الشرعية التي تنفي العدوى نفيا تاما، ومن هذه النصوص قول الرسول: "لاعدوى ولاهامة ولا طيرة وفر من المخنوم كفرارك من الأسد".

النصوص الدينية التي تنفي العدوى توصي مع ذلك باحتساب الاحتياط بين سكان المناطق المصابة والمناطق السليمة، وذلك بالنهاي عن الخروج من البلد الذي نزل به الطاعون أو القدوم إلى البلد المصاب بالطاعون.

هذا الموقف الذي يعتمد على النصوص الدينية يقابله موقف أكثر عقلانية، يقر بوجود العدوى ويجد هذا الموقف واضحا خاصة في مصادرنا الأندلسية. فابن خاتمة بعد أن تحدث عن العدوى عن طريق الهواء ذكر أنه لاحظ أن الموت أقل في المدن التي لا تسمح للمسافرين القادمين إليها من جهات أخرى بدخولها زمن الطاعون.

أما ابن الخطيب فهو أكثر حسما في الاقرار بالعدوى، بل أنه يجعل على كل من يتكرها بشدة، اورد "أنه لاينكر العدوى الا أحد رجلين، أما منافق يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه وأما جاهل ماحضر وباء قط" (37). تم تخصيص جزءا هائلا من رسالته "مقنعة السائل عن المرض الفاتل" لاثبات العدوى يقول: "فان قيل كيف نسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك، قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والخبر والمشاهدة والاخبار المتواترة وهذه مواد الترهان، وغير خفي عمن نظر في هذا الأمر أو ادركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا وسلامة من لا يباشره كذلك، ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب أو

37. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 8.

آنية حتى أن القرط أُلْثِفَ من علق باذنه وأباد البيت بأسره. ووقعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في اإذاذ المباشرين ثم في حيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق، وفي مدن السواحل المستنصحية حال السلامة الى أن يحل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها حجر الوباء وحل موءف، فيكون تاريخ ظهور المرض بها مقارنا لحلوله. وسلامة الكثير ممن أغشى في التوحش كالزاهد ابن أبي مدين بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى وقد تزود لمدة وبني باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفيت المدينة ولم يرزأ نسمة واحدة بطول تلك المدة. وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لانتاها الطرق ومنقطعة عن الناس. ولا أعصّب لهذا العهد من سجن الأسرى من المسلمين انقذهم الله بدار صنعة اشيئية وهم ألوف لم يصيبهم الطاعون وقد كاد يستأصل المدينة". (38)

بعد أن تعرضنا للموقفين: موقف الفقهاء الذين تقوا العدوى وكذلك الطب الرسمي الذي ينطلق من العقائد الدينية ويقابله موقف بعض المفكرين الذين أنشوا وجود العدوى بما لا يدع مجالاً للشك، نتساءل عن موقف عامة الناس وموقعهم بين هذين الموقفين؟

كان موقف عامة الناس يتميز بالغموض والتأرجح بين هذين الموقفين، فهم وان اقتنعوا بوجود العدوى ويتحلى لنا ذلك من خلال العديد من الممارسات التي سوف نتحدث عنها في الفقرة التالية وكذلك حتى من خلال الاتعاءات الفقهية (سئل أحد فقهاء المغرب عن ثوب الملبى بالطاعون هل هو معيب أم لا) (39)، مع ذلك بقي فعل العدوى غامضاً في أذهان الناس وازداد هذا الغموض تحت تأثير الفقهاء مما جعل المواجهة والتصدي للطاعون يمتاز بكثير من السلبية.

3- في مواجهة الطاعون والأوبئة:

يتميز الموقف السائد في المجتمع المغربي وسائر المجتمعات الاسلامية بالاستسلام للطاعون على أساس أنه قضاء لامفرّ منه، وقد برّر هذا الموقف التفسير السحري الديني الذي يجعل الطاعون طعن حنّ ليس بمقدور الانسان مواجهته، وتدعم هذا الموقف السليبي نظراً لعجز الطب عن إيجاد دواء هذا الوباء. وقد نصح الفقهاء بالاستسلام له والصبر عليه وانتظار

38. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 6-7.

39. الونشريسي، المعيار، فاس، 1315، ج 3، ص 27.

الشهادة يقول ابن حجر: "وهذا الطاعون أعيا الأطباء دواؤه حتى سلم حذاتهم ان لا دواء له ولا راجع له الا الذي خلقه وقدره" (40).

أ) الاجراءات الطبية: ولكن ليس من السهل أن يستسلم الانسان للموت فلا أقل من أن ينجّط ويواجه الطاعون بأدوية متنوعة لاتدل الا على الغموض الذي يعنيه هذا الوباء في أذهان الناس "فلو رأيت الاعيان وهم يطالعون من كتب الطبّ الغوامض، ويكترون في العلاج من أكل التواشف والخواص، قد تنغص عيشهم اهنى، علاطحة مسلم الطينة الطير الارمني، وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدّل. وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعة والصندل، ونختموا بالياقوت وجعلوا البصل والخلّ والطحينة من جملة القوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة وقربوا اليهم الانرج وما شابهه" (41). وقد كان ابن سينا أهم مصدر يعتمد لمعرفة الأدوية التي تستعمل لمعالجة الطاعون وقد أوصى بالدواء بطرق مختلفة ذكر ابن حجر العسقلاني (42) أهمها:

1- ملازمة السكون والدعة وترك الرياضة.

2- الفصد والاستفراغ للتخلص من الدم الفاسد.

3- تقوية القلب بالميردات والمعطرات.

4- التبخير بالكافور والسعد والصندل والمسك والعود والعنبر.

ب) الاجراءات الدينية: على أن هذه الاجراءات الطبية كانت تقابلها مجموعة من الاجراءات الدينية كانت أكثر انتشارا لأنها في متناول الجميع ويعتقد عامة الناس أنها أكثر نجاعة وكما يقول ابن حجر العسقلاني "التداوي بالادوية أنجع من التداوي بالعقاقير" (43).

وأول هذه الأدعية التي تجنب الاصابة بالطاعون مجموعة من الاذكار أوردها ابن حجر نحرس قائلها من كيد الحسن. أما الشافعي فيوصي في الحلية بالتسبيح اذا حلّ الطاعون لأن التسبيح يرفع العقوبة والهلاك. (44)

40. ابن حجر العسقلاني، بدران الماعون، ورقة 79.

41. ابن حجر العسقلاني، بدران الماعون، ورقة 75ب.

42. ابن حجر العسقلاني، بدران الماعون، ورقة 167.

43. ابن حجر العسقلاني، بدران الماعون، ورقة 160.

44. ابن حجر العسقلاني، بدران الماعون، ورقة 124.

على أن بعض الادعية والصلوات أثار نقاشا حادا وجدلا بين الفقهاء حول مشروعيتها خاصة أن بعضها استحدث زمن كثرة الطوائع في القرنين 8 و 9 هـ/ 14 و 15 م ولا يستند الى تراث العصر الاسلامي الأول. من ذلك الصلاة الجماعية والخروج الى الصحراء للدعاء برفع الطاعون وقد رفض الفقهاء هذه الصلاة لكونها بدعة وذلك خصوصا بعد أن لاحظوا أن التجمع للصلاة كثيرا ما ينتج عنه انتقال المرض من المرضى الى الأصحاء وارتفاع عدد الملوّكي مما يشكك في نجاعة التدلوي بالادعية والالتصاء الى الصلاة. وربما صام الناس أياما لله لعله يرفع الطاعون، وهو اجراء مستحدث لا يستند الى النصوص التقليدية.

أما ابن أبي حجلة فقد ألف كتابه عن الطاعون أساسا ليبيّن أن أفضل وسيلة لرفع الطاعون هي الصلاة على الرسول في مقدمة كتابه يقول: "ولم أر ما يدفع عظمه المهول مثل الصلاة على الرسول". وكتابه: "ردّ عمّن رأى في التدلوي بالصلاة على الرسول بدعة مرفوضة" (45). كذلك استغل الفقهاء الطاعون والمآسي التي يجدها والأثر العميق الذي يتركه في نفوس الناس للدعوة الى احترام القيم الدينية وترك كل المخالفات بل ذهبوا الى أكثر من ذلك ففسروا الطاعون بكونه عقاب الاهي مسلط على الناس بعد أن كثرت بينهم الفساد وانتشرت في أوساطهم المنكرات.

وشدّد الفقهاء على مخالفتين هما الزنا وشرب الخمر يقول ابن حجر العسقلاني: "وما ينبغي المبادرة اليه ردّ الظالم والتخلص من التبعات والثوبة من العودة الى شيء من معصية الله تعالى والندم على ما مضى من ذلك".

ج) الاجراءات الاجتماعية: قبل أن نغتم الحديث عن الطاعون نذكر مجموعة من العادات والتقاليد المغربية التي تلعب دورا هاما في نشر الوباء ومع ذلك كان المغاربة يحرصون على القيام بها. من هذه العادات:

* زيارة المصاب.

* السهرة الجماعية لتوديع المالك.

* تغسيل الميت.

* تشييع جنازته والصلاة على جثمانه قبل حرقه.

45. ابن أبي حجلة، دفع النجاسة، ورقة 13.

من خلال النصوص التي لدينا يتبين أنّ بعض الأطباء والمفكرين تفتنوا الى خطورة زيارة المريض المصاب بالطاعون من هؤلاء ابن الخطيب الذي يرى أنّ الطاعون من جملة من يصيب زوّار المريض (46). كذلك ذكر ابن حجر العسقلاني أنّ مجموعة من الأطباء نهوا من مخالطة من أصابه الطاعون مما دفع العامة الى أن تمتنع عن عيادة المطعونين، ويرفض ابن حجر هذا الرأي ويدعو الناس الى زيارة مرضاهم واحترام التقاليد الاسلامية التي توصي بزيارة المريض (47). ويتبين من خلال النصوص أنّه لم يقع عزل المصابين بالطاعون بل على العكس من ذلك كانت تتكاثر عليهم الزيارات نظرا لقوة الروابط العائلية القريبة والبعيدة في مجتمع حافظ على هياكله القبلية، وكذلك لقوة التقاليد الدينية. وقد كانت هذه الزيارات بدون شك تساهم في نشر الوباء.

من ناحية أخرى لعبت مجموع الشعائر الجنائزية دورا هاما في نقل العدوى بين أفراد المجتمع ومن ضمن هذه الشعائر السهرة الجماعية حذو امهالك المطعون لتوديعه وهي مناسبة لنقل المرض الى مجموع الساهرين وكذلك غسل الميت وقد لاحظ الأطباء الفرنسيين الذين عالجوا حالات الطاعون بتونس في أول هذا القرن أنّ هذه العملية وسيلة أكيدة لنقل العدوى الى من يقوم بالغسل (48). ومن هذه الشعائر ايضا تشييع الجنائزة والصلاة الجماعية على الميت التي كانت تعتبر هي الأخرى فرض لانتقال المرض من المرضى الى الأصحاء.

نستخلص من كل هذا أنّ المجتمع المغربي واجه هذه الأوبئة بمجموعة من الاجراءات طبية، دينية واجتماعية فشلت في الحد من انتشار الطاعون بل ساهم بعضها في ترويجه.

والملاحظ أنّ الطاعون ليس له نفس الوقع على سائر الفئات الاجتماعية فهو كما ذكر ابن الخطيب: "في الضعفاء وأهل الشغل اقل" (49) ويفسر هذا التفاوت أمام الموت: "ان قبل لأي شيء يكرّر وقوعه في أهل الشغل، قلنا لأمر منها أماكن المباشرة لمضانه من

46. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.

47. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ورقة 67.

48. Bloch Edouard, *La peste en Tunisie : Aperçu historique et épidémiologique*, Tunis, 1929.p.101-102

49. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 9.

المرضى والجنائز والأثواب والالآت، ومنها ضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير، وعدم التحفظ، وقلة التيقظ لقشو الجهل وعدم العلم بهذه الأمور في طبقات اللقيف" (50).

وتذكر المصادر أنه زمن الطاعون يترك بعض الأغنياء المدينة الى مزارعهم وبساتينهم من ذلك عادة الملوك الحفصيين يترك القصبية وسكنى باردو زمن الطاعون (51). وحتى الزهاد ذوي الامكانيات الواسعة يغتنمون فرصة انتشار الطاعون ليتفرغوا أكثر للتعبد والزهد وقد ذكر ابن الخطيب "سلامة الكثير من أغنى في التوحش كالزاهد ابن أبي مدين، بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى وقد تزود لمدة، وبني باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفنيّت المدينة ولم يرزأ نسمة واحدة بطول تلك المدة" (52).

الخاتمة

تتفق جلّ الدراسات على أن عام 749هـ/1348م هو السنة التي شهدت ولادة الطاعون في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لذلك يعتبر القرن 8 هـ/14م بداية مرحلة جديدة في تاريخ الطاعون والأوبئة بالمغرب الاسلامي الوسيط وذلك لأن هذا الوباء الذي تميّز بالشدة والشمول كان منطلقاً لسلسلة من الطواعين التي استمرت حتى القرن 12 هـ/18م وكانت لذلك أعظم النتائج على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسكاني للمنطقة.

والطاعون الاعظم الذي كان مصدرا لهذه الوبئة كلّها هو عبارة عن التقاء بين انواع الطواعين الثلاث: الغدديّة والثويّة والتسمية وقد اكتسح هذا الطاعون المنطقة طيلة عدّة سنوات بين 749 و 751 هـ/1348 و 1350م وحدث بعد ذلك تواتره رعبا كبيرا لدى عامة الناس إذ يكاد كل جيل من الاجيال التي نشأت بعد هذا التاريخ قد شهد مرّة في حياته على الاقل. لذلك تأثرت ثقافة مجتمعات هذه العصور وعقليتها شديد التأثير بهذا الداء العضال، وانقسم ادراك الناس لهذا الوباء وتفاعلهم معه الى نوعين:

ادراك أول ديني سحري يقف موقفا سلبيا من الوباء. ونجد صده في مؤلفات ابن ابي حجلة وابن حجر العسقلاني، تقابله تصورات عقلانية تجريبية تولدت عنها نظرية الاقرار بالعدوى ويتجلى ذلك في كتاب ابن الخطيب وابن أبي خاتمة حول هذا الموضوع. ومخلال

50. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 11

51. الزركشي محمد بن ابراهيم، تاريخ الدولتين المرينية والحفصية، تونس 1966، ص 147.

52. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7

مواجهة الطاعون نتج عن هذا الادراك (سواء منه الديني السحري او العقلاني التجريبي) سلوك متميز. ذلك أنه بانعدام المقاومة الجماعية للوباء خلال هذه العصور، فإن المواقف الفردية كانت تارة سلبية تميزت بالاستسلام للطاعون والقبول به وتارة اخرى اتصفت بالصمود والمقاومة باستعمال ادوية ليس لها أي نجاعة في القضاء على المرض او بتفاديه وذلك بالانعزال واجتناب مواطن العدوى.

البيبلوغرافيا

- ابن بطوطة، 1964، الرحلة، بيروت.
- ابن خاتمة، أحمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط الاسكوريال رقم 1785، هذا النص ترجم جزئيا إلى الألمانية:
- Dinānah Taha; 1927 "Die Schrift Von Abi Ja'far Ahmed ibn 'Ali ibn Khātimah aus Almeriah über die pest" in K. Sudhoff et H.E Sigerist, *Archiv für Geschichte der Medizin*, vol 19 pp. 27-81.
- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد : مقتعة السائل عن المرض الهائل، مخطوط الاسكوريال رقم 1786، نشرة
- Müller M.J 1863, "Ibnul-khatib's Bericht über die Pest." in *Sitzungsberichte der Königl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften zu München*, Part2, p.1-34
- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد، 1928، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2 ج، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن 1967-1968 كتاب العمر، 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى، 1910، كتاب بغيّة الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر.
- ابن حجر، أحمد، بذل الماعون في فوائد الطاعون، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 569.
- ابن غازي، أبو عبد الله محمد، 1964، الروض المتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط.
- ابن الشماخ، أبو عبد الله محمد بن أحمد، 1984، الأداة البينة النورانية في مفاسر الدولة الحفصية، تونس.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1965، أنس الفقير وعز الحفير، الرباط.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1968، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تونس.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1983، كتاب الوفيات، بيروت.
- ابن مريم أبو عبد الله محمد، 1908، البستان في ذكر الأوكياء والعلماء بتلمسان، الجزائر.
- الأبي، أبو عبد الله محمد، 1902، إكمال الاكمال، القاهرة.
- الزركشي محمد بن ابراهيم، 1966، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس.
- السراج، الوزير محمد بن محمد الأندلسي، 1984، الحلل السندية في الأخبار التونسية، 3 أجزاء، بيروت.
- السعداوي أحمد، 1983، "المحاضرات والأوبة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط"، الديموغرافية التاريخية في تونس، ص 27-48، تونس.
- الطنوكي، بابا أحمد، 1911، نيل الانتهاج بتطريز الدياج، 3 أجزاء، القاهرة.
- المقرئ أحمد بن علي، 1958-1962، كتاب السيوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة.
- النباهي، أبو الحسن بن عبد الله، 1948، تاريخ قضاة الأندلس، القاهرة.
- L'Africain, Jean-Léon. 1956, *Description de l'Afrique*, 2 vol. Paris.

- Antuna, M.M., 1928, "Abenyatima de Almeria y su tratado de la peste", *Religion y cultura*, Madrid, vol. I, N°4 , p.68-90.
- Biraben, Jean Noël, 1975-1976, *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, 2t., Paris.
- Bloch Edouard, 1929, *La peste en Tunisie (aperçu historique et épidémiologique)*, Tunis.
- Bowsky, W.M., 1971, *The Black Death: A Turning point in History?*, New York.
- Brunschvig Robert, 1936, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle Abdalabsit b. Halil et Adorne* - Paris.
- Brunschvig Robert, 1941-1947, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV^e siècle*, 2 vol. Paris.
- Conrad Lawrence, 1981, "Arabic Plague chronologies and treatises: social and historical factors in the formation of literary genre", *Studia Islamica*, 54, p.51-93.
- Daniel, Williman, (éd.), 1982, *The Black Death, the impact of the foorteenth-century plague*. New York.
- Dols W. Michael, 1977, *The Black Death in the Middle East*, Princeton.
- Levi- Provençal Evariste, 1931, *Inscriptions arabes d'Espagne*, Paris.
- Marchika, Jean, 1927, *La peste en Afrique Septentrionale: histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830*, Alger.
- Panzac Daniel, 1985, *La peste dans l'Empire Ottoman (1700-1850)*, Louvain.
- Semmach Y. 1934, "Une chronique juive de Fez", *Hespéris*, t XIX p.79 - 94.
- Shoshan Boaz, 1981, "Notes sur les épidémies de Peste en Egypte", *Annales de Démographie historique*, p.387-407.
- Sublet, Jacqueline, 1971, "La peste prise aux rêts de la jurisprudence: Le traité d'Ibn Hagar al-'Asqalani sur la peste", *Studia Islamica*, vol. 33, Paris, p.141-149.
- Verlinden Charles, 1938, "La grande peste de 1348 en Espagne", *Revue belge de philologie et d'histoire*, XVII, p.103 -146, Bruxelles.
- Wiet, Gaston, trad., 1962, "La Grande Peste Noire en Syrie et en Egypte", *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, vol. 1, Paris, p.367-384.
- Ziegler, Philip, 1991, *The Black Death*, Strond (G.B.).